

التعليم الجامعي بغير اللغة العربية وأثره في الاستيعاب
والإبداع

الأستاذ الدكتور فتحي جروان
جامعة عمان العربية للدراسات العليا

الثلاثاء 26 ذو الحجة 1432هـ - الموافق 22 تشرين الثاني 2011م

الملخص

يتناول هذا البحث قضية على درجة كبيرة من الأهمية لما يترتب عليها من انعكاسات خطيرة على مجتمعاتنا العربية وهي تواجه تحديات غير مسبقة - في حاضرها ومستقبلها- في المجالات التربوية والتقنية والمعلوماتية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية. وإذا كانت تنمية الإبداع لدى الطلبة من الأهداف الرئيسية لمؤسسات التعليم العام والجامعي، فإنّ التساؤل يبدو منطقياً حول العلاقة بينه وبين التعليم بغير اللغة العربية في هذه المؤسسات.

إنّ الإجابة عن هذا التساؤل تستدعي مناقشة المحاور الآتية:

- مفهوم الإبداع كمنظومة متكاملة من العناصر أو المكونات المترابطة،
 - العلاقة بين اللغة والتفكير الاستدلالي والإبداعي،
 - أزمة التعليم الجامعي في التوسع الكمي، ومحدودية التمويل، على حساب الجودة والبحث العلمي،
 - العلاقة بين التعليم الجامعي بغير اللغة العربية والاستيعاب والإبداع،
 - العلاقة بين تعلّم لغات أجنبية وبراءات الاختراع في العلوم المختلفة.
- إن مراجعة العديد من الدراسات والبحوث العلمية العربية التي تعرضت لمعوقات الإبداع لم تُشر إلى التعليم بغير اللغة العربية كأحد محقّرات الإبداع، وذلك لأنّ الإبداع في واقع الأمر عملية معقّدة تنطوي على عوامل معرفية وانفعالية وثقافية وأخلاقية متداخلة، تشكّل حالة ذهنية نشطة يمكن أن تؤدي إلى نتائج أو اختراقات أصيلة إذا ما وجدت بيئة مناسبة. كما أنّ دراسة تاريخ الاكتشافات العلمية وسير حياة المبدعين، تثبت أن الإنجازات الإبداعية والابتكارات العلمية كانت في معظمها نتاج مجهودات أفراد حباهم الله بقدرات أو مواهب استثنائية،

واحتضنتهم بيئة أسرية داعمة، قبل أن يصلوا إلى مرحلة التعليم الجامعي أو يتعلموا لغات أجنبية.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أنّ عدد براءات الاختراع بالنسبة لعدد السكان في الدول التي تُدرّس العلوم بلغاتها الوطنية، يزيد ع لى عددها في الدول التي اعتمدت لغات أجنبية في تدريس العلوم، وذلك كما ورد في تقرير التنمية البشرية في الدول العربية، الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام 2004.

مقدمة:

تواجه المدرسة والجامعة في الدول العربية بشكل خاص تحديات غير مسبوقة ، تفرضها التغيرات المتسارعة في مجالات الاتصالات والعولمة والنظام العالمي الجديد الذي بدأت معالمه تتشكل في بداية العقد الأخير من القرن الماضي ، واتضحت بعض ملامحه التي شملت العالم الإسلامي بكامله في بداية العقد الأول من القرن الحالي ، وتعرضت مؤسسات التعليم لضغوطات هائلة كي تطور برامجها ، وتعيد النظر فيها حتى تستجيب للمصالح الخارجية من جهة ، واحتياجات طلبتها المستقبلية من جهة أخرى ، والتي تتلخص في كيفية إعدادهم للتعامل مع هذه التغيرات التي تكاد تظال جميع جوانب حياة المجتمع في تاريخه ، ولغته ، وثقافته ، ومعتقداته ، وموارده الطبيعية .

وإذا سلّمنا بأن التغير ظاهرة ملازمة لحياة المجتمعات والأفراد ، على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، فإن الدعوة للإصلاح والتطوير التربوي تمثل استجابة طبيعية بل وضرورية ، لضمان توفير متطلبات التنمية والتطور ، التي تُعد الموارد البشرية أهم عناصرها وأدواتها ، فكيف إذا كانت التقديرات في بلادنا تشير إلى أن ثلث عدد السكان وربما أكثر على مقاعد الدراسة؟

وفي هذا الصدد لا بُدّ من إثارة مجموعة من التساؤلات ذات العلاقة:

- هل يكون الإصلاح من أجل تطوير القدرات الإبداعية لطلبتنا بتعليمهم بلغة أجنبية ، على حساب لغتهم العربية؟

- وهل الدول التي حققت إنجازات متقدمة في مجالات العلوم المختلفة اعتمدت لغات غير لغاتها الأصلية في جامعاتها ومدارسها؟

- وهل التعليم باللغة الوطنية من معوقات الاستيعاب والإبداع في مختلف العلوم والآداب؟

- وهل يجوز تهميش اللغة العربية التي تتفرد بخصوصية لا تشاركها فيها أي لغة من لغات العالم (كونها لغة القرآن الكريم)، تحت أي ذرائع أو مبررات؟

لقد أظهرت نتائج الدراسة الموسّعة التي قام بها عدد من الباحثين العرب بإشراف منتدى الفكر العربي في عمّان، قبل ربع قرن تقريباً، ضمن إطار "مشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي"، أن التعليم العربي تعليم ماضوي تجزيئي مأزوم، وأن مؤسسات التربية والتعليم العام والجامعي في معظم الدول العربية تواجه تحديات حقيقية وخطيرة، على أكثر من صعيد.

وقد ورد في التقرير النهائي لمشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي الذي قام به منتدى الفكر العربي بعنوان (تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين: الكارثة أو الأمل) ما يُليّ: "... وفي المراجعة الدقيقة التي قمنا بها لكل الوثائق الرسمية في الدول العربية حول أهداف التعليم، لم نعر على هدف إعداد المواطن للمستقبل كهدف واضح أو صريح، بل إن كلمة "المستقبل" لا تكاد توجد على الإطلاق في معظم هذه الوثائق، وحتى في فحصنا لمضمون المواد التعليمية نادراً ما يرد أي ذكر للمستقبل. وفي الحالات النادرة والمتفرقة التي ورد فيها أي ذكر للمستقبل، فقد ورد بصورة هلامية غير واضحة، وكان المقصود به تحسين المستوى الاجتماعي - الاقتصادي، أو مجرد الإعداد لممارسة عمل على المستوى الفردي... إن التركيز الذي وجدناه في أهداف ومضامين التعليم في الأقطار العربية طبقاً لوثائقها الرسمية هو على الماضي والحاضر، هذا مع أن التعليم بطبيعته هو عملية مستقبلية..." (إبراهيم، 1991، صفحة 65-66).

واليوم ونحن في بدايات العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين نلاحظ أنّ ما توصلت إليه تلك الدراسة لا يزال صالحاً لوصف الوضع الراهن الذي تواجه فيه أمتنا العربية تحديات جارفة تكاد تعصف بموروثها الحضاري والثقافي، في عصر

المعرفة والأزمات الأمنية والتقنية والمعلوماتية والاقتصادية، وما يترتب عليها من عواقب تحتم علينا وقفة تأمل ومراجعة موضوعية ومتأنية ، لتحديد السبل والطرائق التي يمكن أن تعيننا على الخروج من هذه الأزمات بأقل الخسائر. ولأنها تمثل مشكلات في غاية التعقيد وغير مسبوقه، فإنها بحاجة للتفكير في كيفية إيجاد حلول غير مسبوقه أيضاً.

وتمثل اللغة العربية بما لها من خصوصية، حجر الزاوية في استنهاض الأمة للقيام بدورها الحضاري، وتفعيلها في مؤسساتنا التعليمية، والإعلامية، والاجتماعية، للقيام بهذا الدور، وللحفاظ علىها في حد ذاتها. دون أن يعني ذلك انغلاقاً أو مجافاةً للغات الأخرى.

- مفهوم الإبداع كمنظومة متكاملة من العناصر أو المكونات المترابطة:

تشير المراجعة المستفيضة للأدب التربوي حول تعريف مفهوم الإبداع، إلى وجود أكثر من مائة تعريف يمكن تصنيفها ضمن أربعة محاور:

- تعريفات محورها الفرد المبدع بخصائصه الشخصية والمعرفية والتطويرية.
- تعريفات محورها الناتج الإبداعي أو الجانب المادي الملموس للعملية الإبداعية.
- تعريفات محورها المناخ أو البيئة التي يحدث فيها الإبداع.
- تعريفات محورها العملية الإبداعية ، ومراحلها وارتباطها بحل المشكلات ومعالجة المعلومات وأنماط التفكير.

ويشار لهذه المحاور عادة بصيغة مختصرة فيما يسمى بـ(4P's)، وهي ترمز إلى الشخص ، والعملية الإبداعية، والناتج الإبداعي، والبرهان أو عملية الإقناع بأصالة الناتج الإبداعي وفائدته. وقد يكون من المناسب اقتراح التعريف الآتي الذي يجمع بين هذه المحاور الأربعة:

الإبداع مزيج من القدرات والاستعدادات والخصائص الشخصية للفرد التي إذا ما وُجدت في بيئة مُحفزة يمكن أن تتفاعل مع عناصرها ، وترقى بالعمليات العقلية لتؤدي إلى نتائج أصيلة ومفيدة بالنسبة لخبرات الفرد، أو المؤسسة، أو المجتمع، أو العالم إذا كانت النتائج من مستوى الاختراقات في أحد ميادين الحياة الإنسانية.

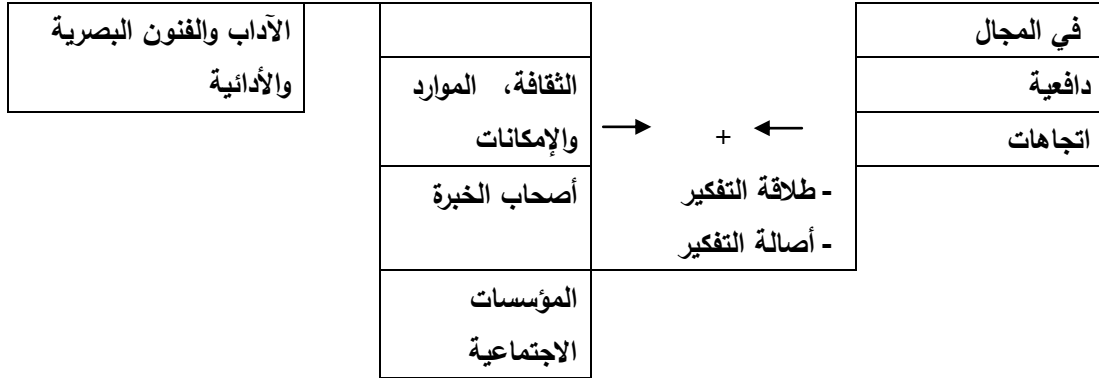
إنّ هذا التعريف المركّب للإبداع يحدّد جميع العناصر ذات العلاقة بالظاهرة الإبداعية، كما أنه ينطوي على مجموعة من الاستنتاجات المهمة التي ينبغي أخذها بالاعتبار في التخطيط لأيّ مشروعات تستهدف رعاية الإبداع وتحفيزه، ومن أهمها النظر للإبداع كمنظومة تتضمن أربعة مكونات رئيسية، هي:

١. **الشخص المبدع**، وهذا يعني أنّنا نتحدّث عن أفراد توافرت لديهم خصائص واستعدادات أو قدرات غير عادية، مقارنة بالآخرين.
٢. **العملية الإبداعية أو التفكير الإبداعي**، وهذه تعني أنّنا نتحدث عن عمليات تفكير هادفة، ومعاناة، قد تطول وقد تقصر، ومن الصعب التنبؤ بنهايتها.
٣. **البيئة الحاضنة**، وهذه تعني مزيجاً من العناصر المتداخلة بدءاً بالأسرة، مروراً بالمدرسة ثمّ الجامعة، والمجتمع بثقافته ومؤسساته الحكومية والأهلية.
٤. **النتائج الإبداعية**، وهذه تعني المحصلة النهائية التي لا بدّ أن تتوافر فيها مجموعة من الخصائص كالأصالة أو الجِدّة والفائدة، ويتقبلها المجتمع في بلد ما أو عصر ما.

ويمكن تمثيل التداخل والترابط بين مكونات منظومة الإبداع الأربع على النحو التالي:

المحصلة	البيئة	عمليات التفكير	الفرد
ابتكارات ونتائج إبداعية في مجالات العلوم	الأسرة	الاحساس بالمشكلة	قدرات واستعدادات
	المدرسة والجامعة	- مرونة التفكير	معرفة ومهارات





وهناك بعض النقاط التي تحتاج إلى تأكيد وتوضيح، ومن أهمها ما يلي:

- الإبداع منظومة تتضمن عدة مكونات مترابطة ومتداخلة.
- الإبداع معاناة وجهد وليس وحيأ أو إلهاماً يحدث من فراغ.
- الأصالة في الإبداع نسبية وليست مطلقة.
- النتائج الإبداعية لها مستويات يحددها الإطار المرجعي للمقارنة.
- البيئة بجميع عناصرها تمثل الحاضنة للظاهرة الإبداعية وبدونها تنعدم الفرص للإبداع.
- توافر البيئة المناسبة والرعاية تقوي احتمالات التوصل إلى نتائج إبداعية.
- قيمة النتائج الإبداعية وفائدتها يحددها المجتمع في ضوء المعايير السائدة.

معوقات الإبداع ومحفزاته:

تناولت دراسات كثيرة - عربية وأجنبية- البحث في أبرز معوقات الإبداع، والأساليب أو الإجراءات التي يمكن أن تساهم في التغلب على هذه المعوقات، من أجل تحفيز وتسهيل عملية تنمية القدرات الإبداعية عند الطلبة في المدارس

- والجامعات (حمود، 1995؛ الشايب، 1992؛ سايمنتن، 1993). وأظهرت هذه الدراسات أنّ معوقات الإبداع يمكن تصنيفها في ثلاث فئات، هي:
- الأسرة من حيث مستواها الاقتصادي والاجتماعي، والتعليمي والثقافي، وأساليب التنشئة السائدة لديها في تربية أطفالها.
 - المؤسسات التعليمية من حيث مناهجها، ومصادر التعلم المتوافرة، وطرائق التدريس فيها، وأساليب التقويم التقليدية، والمناخ التربوي السائد فيها.
 - المجتمع، من حيث الاتجاهات والقيم السائدة فيه، وتحديد ادوار الجنسين، والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، والاضطرابات الأمنية والسياسية والحروب.
- ولم يرد في أيّ من الدراسات التي تمّت مراجعتها أنّ التعلّم بغير لغة الأم أو اللغة الوطنية من بين معوقات الإبداع.

الإبداع والثقافة العربية

يتوافر في المراجع ذات الصلة بموضوع الثقافة عشرات التعريفات التي تعبّر عن وجهات نظر متباينة للمفكرين وعلماء الاجتماع والإنثربولوجي وغيرهم. وهناك عدة تصنيفات للموضوعات والمواد التي تقع تحت مظلة الثقافة. ولكننا نعتقد أنّ التعريف التالي يشمل أهم العناصر المتكررة في كثير من التعريفات:

الثقافة عبارة عن منظومة ديناميكية كلية من المعارف والعقائد والفنون والقيم والأعراف، التي تشتمل على مكونات مادية وغير مادية تمثل تجارب الماضي والحاضر لشعب أو مجتمع ما، وتعبّر عن تراثه وسلوكه الجمعي، تتناقلها الأجيال بصورة انتقائية، ويكتسبها الفرد من مجتمعه بالتعلّم المباشر وغير المباشر، لتصبح جزءاً من شخصيته، وكيانه الذهني والنفسي، والحسي الذي يوجّه سلوكه وردود فعله نحو بيئته الاجتماعية والمادية (بدران، 1992).

إنّ هذا التعريف يُظهر بوضوح مدى تعقيد مفهوم الثقافة، لأنه متداخل مع جميع جوانب الحياة الاجتماعية في اللغة والدين، والطعام والاقتصاد واللباس،

والمُثل والقيم والمعتقدات والمعارف ، والتنظيم الأسري ، وأنماط التفكير ، ونتائج العمل بأشكالها المختلفة. وهناك من يرى بأن الدولة ليست سوى نتاج ثقافة المجتمع، وهي في الحقيقة ترجمة للواقع الثقافي للمجتمع.

إنّ العقل الإنساني قادر على صنع المعجزات إذا أطلق له العنان، لكنه يظل أسيراً للثقافة السائدة، بقيمها وتقاليدها وعلاقاتها الاجتماعية، في تعامله مع الواقع وتحدياته. إنّ الثقافة العربية على مدى أكثر من ستة قرون ظلت ثقافة اجترار وليست ثقافة ابتكار، واقتصرت على إنتاج ما عرف بالحواشي والتقارير ، ومختارات أو منتخبات جمعت أو شرحت ما كتبه السابقون من النوابع والمبدعين ، ولو نظرنا إلى مؤسساتنا التعليمية لوجدنا أنها لا تزال تكرّس هذا الواقع مع الاختلاف في مادة الاستهلاك العلمي أو الفكري.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن تفعيل منظومة الإبداع الوطنية تصبح ضرورة حتمية وقضية حياة أو موت بالنسبة لمجتمعنا ، وأي مجتمع يسعى للبقاء والتطور بالاتجاه الإيجابي. والسؤال دائماً هو كيف يمكن تحقيق ذلك إذا توافرت الإرادة السياسية؟

إن أحد أهم القطاعات التي تراهن عليها الأمم في نهضتها هو قطاع التعليم بجميع مستوياته ومؤسساته، وحتى يتصدى هذا القطاع للمهمة فهو بحاجة إلى دعم مجتمعي ، وإحداث تحولات جذرية في أهداف التعليم ومناهجه وأساليبه ، وتقييم مخرجاته.

والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد يتعلق بماهيّة إشكاليات الثقافة والتربية العربية أو التراث الثقافي ، التي تكبّل العقول، وتوقلّ الإبداع. وللإجابة عن هذا السؤال تمت مراجعة عدد من الدراسات التحليلية الرصينة التي تناولت العلاقة بين الإبداع والثقافة، أو الابتكار والثقافة العربية الإسلامية (قمبر والسويدي، 1995،

حمود 1995، الصاوي، 1998، الجابر، 2002، ربيع، 2005). ويمكن تلخيص أبرز الإشكاليات التي وردت في هذه الدراسات على النحو التالي:

- تكريس الفهم الخاطئ للدين واستحسان الاتباع مقابل الابتداع.
- ذوبان الفرد في الجماعة أو جماعية النمط السائد في الثقافة العربية.
- الجمود الفكري وتوجيه الطاقات لاستهلاك نتاجات الآخرين.
- غلبة الاتجاهات التسلطية والبيروقراطية والقدرية في التربية والإدارة.
- المبالغة في التمسك بالعادات والتقاليد ومقاومة التغيير.
- الميل العام لقتل الوقت وتطوير عادات لإضاعته.

- العلاقة بين اللغة والتفكير الاستدلالي والإبداعي:

ترتبط عملية الاستدلال ارتباطاً وثيقاً باللغة، وقد يصعب التمييز أحياناً بين القصور في القدرة على الاستدلال، والقصور في استخدام اللغة وفهمها. بل إن هناك من يرى أن اللغة هي الداء والدواء بالنسبة للقدرة على الاستدلال، ذلك أن الغموض وعدم الدقة في طريقة استخدام الكلمات، عاملان مؤثران في قدرة الفرد على الاستدلال. وليس هناك أدنى شك في أن الكلمة الواحدة قد تستخدم للدلالة على معانٍ مختلفة وفقاً لسياق الكلام أو غاية المتكلم، وهكذا فمن غير المحتمل أن يكون الشخص قادراً على الاستدلال بصورة صحيحة، ما لم يكن قادراً على استخدام اللغة بمنتهى الدقة والحذر. ومن الطبيعي أن يكون التفكير الاستدلالي والمنطقي من متطلبات العملية الإبداعية أو التفكير الإبداعي.

- العلاقة بين التعليم الجامعي بغير اللغة العربية والاستيعاب والإبداع،

أورد الدبيان (1427 هـ) بعض النتائج التي توصلت إليها عدّة دراسات، تفيد بنجاعة اللغة العربية ، وتميُّز الدارسين بها في الأداء والاستيعاب في المجال الطبي، مقارنة مع الدارسين للعلوم الطبية باللغة الإنجليزية، ومنها:

- أثبت نجاح التجربة السورية في تعليم الطب قدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم، ومسايرة التقدم العلمي في المجال الطبي. وفي مصر افتتحت أول كلية للطب في عهد محمد علي، وبدأ التدريس فيها عام 1827م باللغة العربية، "واستمرت على ذلك حتى خضوع الحكومة المصرية للضغوط السياسية من المحتلين، حيث غيرت لغة التعليم إلى الإنجليزية عام 1887، بعد أن كانت حركة التعريب للعلوم المختلفة قد سارت بخطى ثابتة، حيث أُلّف عدد من العلماء في مجال النبات والحيوان والفيزياء والجيولوجيا والرياضيات والصيدلة والنجوم والفلك" (محجوب، لات).

وهناك دول كثيرة تعلّم العلوم الطبية بلغاتها الأصلية كالصين وروسيا وكوبا وألمانيا وفرنسا، وهي لا تقلّ في مستواها في بعض المجالات عن الدول التي تعلمها باللغة الإنجليزية.

- أظهرت دراسة السباعي التي أجراها حول سرعة القراءة ومدى الاستيعاب على عينة من (124) من طلبة الطب ، وأطباء الامتياز ، والأطباء المقيمين في كلية الطب بجامعة الملك فيصل، وكان من نتائجها استطاعة كل من طالب الطب والطبيب قراءة النص الطبي باللغة العربية بسرعة تفوق سرعتهم في قراءة النص باللغة الإنجليزية بحوالي (43%)، كما أن قدرتهم على استيعاب النص باللغة العربية أفضل بنسبة (15%) من استيعابهم للنص باللغة الإنجليزية. كما أظهرت نتائج دراستين تجريبيتين على مجموعتين من طلبة كلية الطب، أُجريتاً في الجامعة الأمريكية ببيروت، والجامعة الأردنية، أنّ المجموعة التي درست أحد

المقررات الطبية باللغة العربية ، كانت أفضل في درجة الاستيعاب من المجموعة التي درست نفس المقرر باللغة الإنجليزية.

- حققت دول كثيرة إنجازات هائلة في المجالات العلمية والتقنية، دون أن تتخلى عن تعليم العلوم المختلفة بلغاتها الوطنية كالصين وكوريا واليابان وألمانيا وماليزيا، وغيرها.

- أظهرت دراسة أجريت في كلية الطب البشري بجامعة الملك سعود في القصيم، أنّ طلاب السنة الأولى في الفصل الأول، غير قادرين تماماً على البحث عن المعلومات والمعارف المرتبطة بمحتوى مادة القراءة الطبية باللغة الإنجليزية، ورأى الباحثان أن الحلّ الأنسب لمعالجة هذه المشكلة، هو تعريب التعليم الطبي ، وتدريبه باللغة العربية، وتعلّم اللغة الإنجليزية بوصفها مادة مستقلة ؛ ليتمكن طالب الطب والعلم من متابعة معارفه.

وقد ذكر الدكتور عباس محجوب أن الأستاذ اسحق موسى الحسيني أشار في بحثه الذي قدمه لمجمع اللغة العربية في القاهرة عام 1985م، إلى أنّ اللغة العبرية هي لغة التعليم في الجامعات الإسرائيلية ، ومراكز البحوث العلمية فيها، لجميع الطلبة بمن فيهم الطلبة العرب. وقد حصل أربعة من علمائها على جوائز نوبل في الكيمياء، وواحد في الاقتصاد. بالإضافة إلى إنجازاتها الهائلة في مجال التقنيات المتقدمة.

كما أوردت الجمعية المصرية لتعريب العلوم (www.taareeb.info)،

بعض النتائج التي توصلت إليها دراسات عديدة حول أهمية التعليم الجامعي باللغة العربية، في ضوء المؤشرات الإيجابية التي أظهرتها مقارنة الدارسين باللغة العربية مع غيرهم من الدارسين بلغة أجنبية، ومن أبرزها ما يأتي:

- تشير بعض الدراسات الحديثة التي أجريت على نتائج امتحان المجلس الطبي للأطباء الأجانب في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى أن الأطباء الذين درسوا بالعربية (حالة سوريا) قد حصلوا على معدل علامات أعلى من المتوسط العام للأطباء المتقدمين للامتحان من مختلف أنحاء العالم.

- تشير بعض الدراسات الحديثة التي أجريت على المؤشرات الصحية (وهي محصلة التعليم الطبي) في بعض دول المنطقة العربية وما جاورها، إلى تحسن تلك المؤشرات في حالة الدراسة باللغة القومية عن حالة الدراسة بلغة أجنبية.

- تشير بعض الدراسات الحديثة إلى أن التفوق من نصيب الدارسين باللغة القومية في المرحلة قبل الجامعية والمرحلة الجامعية على حد سواء.

- تشير بعض الدراسات الحديثة التي أجريت على أوراق الإجابة التي كتبت بالإنجليزية لطلبة إحدى الجامعات العربية، أن عشرة بالمائة فقط من الطلاب استطاعوا التعبير عن أنفسهم بشكل جيد، وأن خمسة وستين بالمائة سردوا المعلومات المطلوبة، ولكنهم لم يحسنوا التعبير، وأن خمسة وعشرين بالمائة لم يفهموا المعلومات.

- تشير إحصاءات منظمة الأمم المتحدة إلى وجود تسعة عشرة دولة في صدارة العالم تقنياً، يتراوح عدد سكانها بين ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف نسمة، وبين مائتين وواحد وتسعين مليوناً، يسير فيها التعليم والبحث العلمي بلغاتها القومية، ولا توجد دولة عربية واحدة ضمن هذه المجموعة من الدول.

- تشير دراسة حديثة عن أفضل خمسمائة جامعة في العالم إلى أن تلك الجامعات موجودة في خمس وثلاثين دولة، يتراوح عدد سكانها بين ثلاثة ملايين وثمانمائة ألف نسمة، وبين مليار ومائتي ألف واثنتين وسبعين نسمة، تدرّس جميعها وتجرى بحوثها بلغاتها القومية.

وقد يكون من المناسب لنا أن نتذكر ما قاله ابن خلدون من أن المغلوب مولع بالغالب في كل أفعاله وطرائق حياته ، إن الهدف السام ي من الرغبة في النهوض بأمتنا لا يجب أن يلفه ضباب المسالك، ولندرس أسلوب بدايات نهضة الأمم العلمية وفي مقدمتها أمتنا العربية والإسلامية ، شرقاً وغرباً، في الماضي والحاضر، واستمرار ذلك علناً نتلمس الخطوات الصحيحة لنهضتنا وتحررنا من عقدة الأجنبي.

معايير الحكم على المناخ الاجتماعي الإبداعي

الإبداع من وجهة نظر علماء الاجتماع قضية اجتماعية وتربوية، والمجتمع عبارة عن منظومة من المؤسسات الصغيرة التي تضم الأسرة والمدرسة والجامعة، والنادي والجمعية، والمسجد والكنيسة، وغيرها من مؤسسات العمل في القطاعين الحكومي والأهلي. والمجتمع بهذا المعنى وعاء كبير تتمازج بداخله عناصر الثقافة والاقتصاد والسياسة والإدارة والتعليم ، وغيرها من مكونات الموروث التاريخي الحضاري لشعب أو أمة، والتي يتشكل منها المناخ العام للمجتمع ، ويتميز بها عن غيره من المجتمعات. و إذا أردنا أن نحكم على منظومة الإبداع في المجتمع من حيث كونها محفزة للإبداع أو محبطة له، فإن إحدى الطرق السهلة لذلك تتلخص في حصر معوقات الإبداع على مستوى المجتمع الوطني، والعمل على إزالتها وفق خطة استراتيجية طويلة الأمد. أما الطريقة الثانية فإنها تعتمد مبدأ المقارنة بين الدول من حيث:

- عدد براءات الاختراع المسجلة في الدولة.
- عدد الجوائز العالمية التي حققتها الدولة في الميادين المختلفة.
- عدد البحوث العلمية النظرية والتطبيقية المنشورة في دوريات عالمية.
- النظم والتشريعات والقوانين المحفزة للإبداع والميسرة له.

- الموارد المالية والفنية المخصصة لرعاية الموهوبين والمبدعين.
- أساليب التنشئة الأسرية.
- مستوى الأمن والاستقرار السياسي والاقتصادي.
- مستوى التعليم وجودته.

وهناك طريقة أخرى تعتمد معياراً واحداً لوصف بلد ما بأنه يوفر أجواء مناسبة لاستثمار طاقات مواطنيه، واحتضان إبداعاتهم، هو عدد جوائز نوبل التي مُنحت لمواطني هذا البلد في مجالات الفيزياء والكيمياء والطب والاقتصاد ، ومن السهل الحصول على بيانات بهذا الخصوص من موقع الجائزة على شبكة الإنترنت.

- أزمة التعليم الجامعي في التوسع الكمي، ومحدودية التمويل، على حساب الجودة والبحث العلمي:

يلاحظ المراقب للتطورات التي تحدث في التعليم الجامعي العربي، أنّ تزايد أعداد الطلبة الذين يتقدمون للالتحاق بالجامعات، فرض على كثير من الدول العربية إيجاد حلول غير مدروسة بدقة لاستيعاب التدفق الطلابي، والتوسع الكمي في القبول، والسماح للقطاع الخاص بإنشاء الجامعات في مختلف التخصصات، دون دراسة معمقة، واستشراف لحاجة سوق العمل، وكان من نتائج ذلك تفاقم مشكلة تمويل التعليم، والبحث العلمي، وندرة الكفاءات العلمية من أعضاء هيئات التدريس، وبالتالي تدني جودة التعليم، وتخريج أعداد كبيرة من العاطلين عن العمل.

أمّا ضعف مستوى الخريجين في اللغة العربية، والافتقار للحدود الدنيا من السلامة النحوية والصرفية والإملائية والمعجمية، فيمكن ملاحظته في عجزهم عن

التعبير، أو عدم الوضوح والإبهام فيما يكتبونه أو يعرضونه (مصطفى وماشة، 2005).

وهناك مشكلة أخرى تتمثل في عزلة الجامعة عن المدرسة والعكس، وعزلة كليهما عن المجتمع، وفي هذه الحالة فإنّ الحديث عن التنمية الشاملة للمجتمع، وتغيير أدوار مؤسسات التعليم العام والتعليم الجامعي، بما يحقق إسهاماً فعالاً في هذه الخطط، لم يُعدّ ترفاً، أو مجرد كلام يقال في المنتديات أو تُدبج به التقارير، ولكنه أصبح مطلباً ملحاً تفرضه متطلبات العصر الذي يتسم بالعولمة والانفتاح والانسحاب الحر للمعلومات والمعارف والمنتجات بكل أشكالها. وما يترتب على ذلك من الرهان على التعليم بكل مراحلها، لإعداد جيل قادر على الدخول إلى سوق العمل، وهو مزوّد بكل المهارات والمعارف اللازمة للنجاح. وإذا كانت الدول لا تملك مهماً كانت قوتها أن تفرض على نفسها وشعوبها العزلة عن المجتمع العالمي، فكيف يمكن أن يُقبل من مدارسنا وجامعاتنا أن تبقى منعزلة بذاتها عن المجتمع من جهة، وعن بعضها البعض من جهة أخرى؟

إن أحد الموجّهات الرئيسة لتطوير معايير الجودة والتخطيط لتطوير التعليم لا يكون باستبدال اللغة العربية بلغة أجنبية، وإنما بمدى توافر عنصرى الشراكة الفعّالة، والتجسير بين مؤسسات التعليم العام والجامعي، وسوق العمل. بمعنى مدى التوافق والانسجام والتكامل، والتفاعل بين مدخلات كل منهما ومخرجاته، بصورة تحقق أهداف التنمية الوطنية بأشكالها المختلفة، وتدفع عجلة النمو والتطور في المجتمع إلى الأمام.

الخلاصة:

لم تُظهر أيّ من الدراسات التي تمّت مراجعتها وجود علاقة ارتباطية، أو سببية بين التعليم الجامعي بغير اللغة العربية، والاستيعاب والإبداع، بل إنّ

النتائج التي توصلت إليها تلك الدراسات أظهرت وجود علاقة إيجابية في الاستيعاب والأداء لدى الدارسين بلغة الأم، في المجالات الطبية والعلمية الأخرى، مقارنة مع الدارسين بلغة أجنبية، ولا سيما الإنجليزية. ومن ناحية أخرى فإنّ محاولة الربط بين الاستيعاب والإبداع والتعليم الجامعي بغير اللغة العربية، لا تستند إلى أساس علمي، لأنّ الإبداع منظومة من العوامل المتداخلة والمتربطة، ويتمّ التعامل فيها مع أفراد حباهم الله بقدرات واستعدادات غير عادية، ويمكن أن تؤدي إلى نتائج إبداعية في مستوى الاختراق الإبداعي حتى قبل دخول الجامعة، وربما في السنوات الأولى من الدراسة الجامعية، أو قبل إنهاء المرحلة الثانوية، فكيف يصحّ التعميم على آلاف الطلبة الذين يلتحقون بالجامعات العربية سنوياً، والافتراض بأنّ تعليمهم بغير اللغة العربية يمكن أن ينمّي قدراتهم على الاستيعاب والإبداع، ولا سيما مع تدنّي جودة التعليم الجامعي، وازدحام الفصول، وضعف مستوى اللغة العربية في معظم الأحوال.

المراجع

- الجابر، عيسى عبد الله. (2002). الرعاية الاجتماعية للإبداع. ورقة منشورة مقدمة لندوة الإبداع والعولمة، 30-31 ديسمبر، وزارة التربية، الكويت.
- جروان، فتحي (2011) الإبداع: مفهومه ونظرياته (الطبعة الثانية). عمان، الأردن: دار الفكر.
- جروان، فتحي. (2011) تعليم التفكير: مفاهيم وتطبيقات (الطبعة الرابعة). عمان، الأردن: دار الفكر.
- الجمعية المصرية لتعريب العلوم (www.taareeb.info).
- حمود، رقيقة. (1995). معوقات الإبداع في المجتمع العربي وأساليب التغلب عليها. مستقبل التربية العربية، 1 (2)، 59-96.
- الديبان، إبراهيم. (1427 هـ). الصراع اللغوي. بحث مقدم لمؤتمر علم اللغة الثالث: (التعليم باللغات الأجنبية في العالم العربي) . قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة، 16 - 17 / 1427 هـ.
- ربيع، محمد عبد العزيز. (2005). الإبداع والمعرفة في عصر العولمة. ورقة منشورة مقدمة للمؤتمر العلمي العربي الرابع لرعاية الموهوبين 16 - 18 تموز، المجلس العربي للموهوبين والمتفوقين، عمان، الأردن.
- سعد الدين، إبراهيم. (1991).. تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين: الكارثة والأمل، التقرير التلخيصي لمشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي. عمان، الأردن: منتدى الفكر العربي.

- سليمان، دين كيث. (1993). **العبقرية والإبداع والقيادة** ، ترجمة شاكر عبدالحميد، سلسلة عالم المعرفة. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- الشايب، سليم محمد. (1991). **العلاقة بين الإبداع وبعض المتغيرات الشخصية والبيئية**. أطروحة دكتوراه غير منشورة. معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس، القاهرة.
- الصاوي، محمد وجيه (1995). **الإبداع في كتابات نجيب محفوظ: دراسة تحليلية. مستقبل التربية العربية، 1 (1)، 155 - 186.**
- قمبر، محمود والسويدي، وضى (1995). **التربية والابتكار . مستقبل التربية العربية، 1 (1)، 103 - 145.**
- محجوب، عباس. (بدون تاريخ). **التعليم باللغة العربية في التعليم الجامعي.**

Retrieved from:

<http://www.dahsha.com/old/viewarticle.php?id=28917>

- مصطفى، عبدالرؤوف و ماشة، مصطفى. (2005). **استنزاف رؤى نهضوية لتطوير مناهج اللغة العربية** . دراسات وأبحاث الملتقى العربي الثاني للتربية والتعليم، التعليم العالي: رؤى مستقبلية (596 - 605). بيروت: مطبعة كركني.

التعليقات والمناقشات

- ضرغام الخفاف/ جامعة بغداد

أشاد بالحلول الواردة في كتاب "التعريب" الصادر سنة 1987م، للدكتور محمد المنجي الصيادي فيما يخص تعريب العلوم والدراسات، فالإبداع يتحقق باللغة الأم على أن تكون الكتابات العلمية حاضرة وافية سادّه لما تتطلبه المادة العلمية.

- رد. أ. د. فتحي جروان

أشار إلى أهمية الثقة بالنفس في قضية الاهتمام باللغة العربية ورأى أن ثقة العرب بأنفسهم مهزوزة وضعيفة؛ لذا لا يثقون بلغتهم، وهناك أكاديميون يشجعون على ذلك - للأسف-.

وفي هذا السياق أشار إلى أول كتاب ألفه في "الموهبة والإبداع والتفوق" وبعد اطلاعه على كل ما كتب حول خصائص الطلبة الموهوبين وقع على كتاب عربي ألف منذ مئتي سنة وجد فيه من خصائص المربي والمؤدب ما يفوق ويسبق بسنين ما توصل إليه الغرب ونقله هو عنهم.

كما أشار إلى "نظرية الذكاءات المتعددة" التي أعدها هاورد جاردنر في جامعة هارفارد وانفق عليها عشرات الملايين، كان "عباس محمود العقاد" في تحليله للشخصيات التي تناولها في "عقرياته" نحا هذا المنحى التشريعي الذي يجعلك تعيش في الوقت والمناخ والبيئة، فقد سبقه بسنين إلى منهج دراسة الشخص وتحليل الشخصية.

ولكننا - وللأسف- إن استشهدنا بمرجع من هذه المراجع نتهّم بأننا أصحاب مراجع ثانوية وبالية؛ لهذا كل من يحمل رسالة للحفاظ على تراثنا ولغتنا وديننا ومواهبنا وعقول أبنائنا يتعرّض لإحباطات في كل يوم.

كما أشاد بمراجعته مفصلة تفصيلاً شاملاً منشورة في مجلة المستقبل للتربية العربية لـ"وضحي السويدي ومصطفى فُنُبر" حول الابتداع والاتباع والخلق وتنفيذ كل حديث أو قول مأثور تمّ تفسيره تفسيراً خاطئاً يجمّد العقل الذي زين الله به بني البشر.

